

# رواية «ملكة العنب»

للدكتور نجيب الكيلاني

رؤية  
إبداعية  
لواقعية  
إسلامية  
أخرى

□ مدخل: نحن بإزاء رواية في حوالي ١٧٥ صفحة خلال سبعة عشر فصلاً متتابعة، قائمة على القص الروائي الواقعي وهي تتألف من شخصيات محورية وشخصيات ثانوية، اتسم بعضها بالثبات على الخير أو الشر وأخرى بالتحول من الشر إلى الخير، وفيها ما يشبه الصراع الخارجي بين قرية الربايعة - النموذج الرمزي للوطن - وبين الإدارة الفاسدة التي سامت العذاب كثيراً من شخصيات القرية بسبب مواقف وطنية حقيقية أو بسبب شبهة قامت لديها، كما قام فيها ما يشبه الصراع بين شخصيتي القصة المحوريتين براعم ومحمد حسب الله، بدا خارجياً ثم نفسياً، قرب بينهما في النهاية، وغير حالة العداوة أو اختلاف وجهة النظر الخارجية إلى مودة وتقارب متبادلين، ثم إلى زواج في النهاية، أسعد القرية كلها، وقبل ذلك دار صراع نفسي ثالث بين هاتين الشخصيتين الفاعلتين في تطور الأحداث، ساعدته عوامل خارجية من شخصيات أخرى قريبة أدت إلى هذه النهاية السعيدة التي منحت كلا منهما جائزة استحقتها بعد أن أدى ثمنها.



بقلم الدكتور

محمد بن محمد بن يوسف

الدكتور نجيب الكيلاني

# ملحة العنب

دار ابن خزيمة



■ د. نجيب الكيلاني

## ■ الحدث الرئيسي:

لقد انطلق العمل القصصي من حادثة واقعية اتكأ عليها القاص، وجعلها محور النمو الروائي، حادثة واقعية سياسية اجتماعية مشهورة، روعت لها البلاد، وتناولتها الصحف - خاصة صحف المعارضة - واهترت لها القلوب، إنها حادثة عودة النعوش الطائرة، تحمل جثث المصريين العاملين في العراق، بعد نهاية حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران، وكان من بين هؤلاء القتلى العائدين بعض أبناء قرية الربابعة - مثل جميع القرى المصرية الأخرى - وقام أبناء القرية بما يشبه التظاهرة والتجمهر والاحتجاج ضد النظام، بسبب نفيه لحوادث القتل ودفاعه عن النظام العراقي، وهي كلها أحداث مادية حاضرة حقيقية مازالت ماثلة في الأذهان.

هذه الحقيقة السياسية ظاهرتها حقيقة اجتماعية أخرى، هي حقيقة انتشار مزارع العنب في الريف، كمحصول غير تقليدي كثير الفائدة، والعائد الاقتصادي، ظاهرة حقيقية استقرت في الريف المصري، أقبل عليها الأذكيا وصاروا بها في عداد الأغنياء بطريق مشروع في سنوات قليلة، وكانت «براعم» بطلاة الرواية من أكبر الاقتصاديين الأذكيا، التي سيطرت على سوق العنب بذكائها ودأبها، وتشجيع الآخرين لها، حتى صارت «معلمة» ذات نوع خاص تختلف عن المعلمات الأخريات اللاتي ألفنا مشاهدتهن في الحوار المصري، إنها امرأة أخرى ذات مثل وأخلاقيات، وحب للخير يتوازى تماما مع ذكائها وحرصها وقدرتها الاقتصادية «وشطارتها» في

الواقعيين: البعد السياسي «النعوش الطائرة العائدة» ثم البعد الاجتماعي لقضية الزراعات الجديدة لمحصول العنب، وكلاهما له سياق اقتصادي.. تحرك الحدث ابتداء بسبب خطبة دينية ألقاها الشيخ الشاب محمد حسب الله خريج الأزهر، ابن صباغ ملابس القرية القديم، والذي عمل بدوره عاملاً في مصبغة أبيه بعد وفاته، تحركت الأحداث وبدأت أوليات الصراع الخارجي تنمو بعد فتوى الشيخ الجديدة، عندما أفتى بأن محصول العنب عليه زكاة يجب أن

سوق المال الجديدة التي كانت لها الكلمة الأولى فيها.

## ■ البعدان السياسي والاجتماعي:

لقد استغل الكاتب هذين البعدين

تؤدي، وأدت هذه الفتوى إلى تحزب المستفيدين منها ضد الملاك وعلى رأسهم «براعم» التي وقفت ضدها في البداية، واستغلت نفوذها لمنع الشيخ الشاب من الخطبة في المسجد الذي ساهمت في بنائه، ولكنها لا تلبث أن تتحول عن هذا الموقف بعد قليل وتنضم في السر ثم في العلن إلى الفريق الإسلامي عندما تشابكت الأحداث، وقامت مظاهرة أخرى أكثر إيذاء، أثناء دفن أحد العائدين في النعوش الطائرة، تبودلت فيها عبارات قاسية ضد النظام، تحركت على أثرها السلطة عندما أبلغها صنائعها الحزبيون في القرية بأن هناك بوادر تمرد ضد النظام نفسه، فتحركت أجهزتها بعنف لتعتقل أفراد الفريق الإسلامي، وكثيراً من أفراد القرية البارزين والخاملين بصورة عشوائية وعلى رأسهم الشيخ محمد حسب الله نفسه، وتتحقق نقلة كبيرة في التطور القصصي من خلال هذه الوقائع التراكمية لتشكل النظام بقرية صغيرة، تتناص أحداثها مع أحداث مماثلة لقرى أخرى مثل: دنشواي - بهوت - كمشيش.. إلخ لاقت الويل على أيدي نظام غاشم يتسم بالعشوائية وعدم التبصر وأخذ البريء بالظالم والمحسن بالمسيء ولأنه مهزوز في داخله فهو يتصور أن كل تجمهر تظاهرة ضده، وبفضل كفاح براعم وسعيها الحثيث وبذلها المالي بسخاء، واستعانها ببعض الأشخاص «النافذين» في السلطة وببعض المحامين البارعين أمكنها الإفراج في النهاية عن المعتقلين وعلى رأسهم الشيخ محمد الداعية خصمها القديم، لتتزوج بعد ذلك فيما

يشبه النبوءة، كأنما هو زواج باركته العقيدة والسعي الصالح، خاصة بعد أن أيدت أحداث أخرى - تفجرت بعد قليل - موقف قرية «الربايعة» فقلبت موقف السلطة - من القرية رأساً على عقب - لقد قامت حرب الخليج بعد غزو الكويت، ووقف النظام مع الشرعية الدولية وانكشف المستور عن فظائع نظام العراق، الذي فجر أحداث القرية، بل غدت هذه القرية نموذجاً للوعي المبكر، والبصيرة المستنيرة، والرؤيا العالية وأضحت هذه السابقة بطولية استغلتها صحف المعارضة، ليعود المعتقلون أبطالاً تستقبلهم القرية بالزغاريد، بعد أن خضع النظام للحق وأطلق المأسورين. سجلت الأقلية الإسلامية البصيرة نصراً على الغوغائية والعشوائية والتأييد الأعمى. (١)

وإذا كانت فتوى العنب قد فجرت الأحداث الأولى، فهناك أحداث داخلية أخرى قد ظاهرتها، مثل جريمة قتل مصطفى السلاموني، أحد الأشرار البارزين، وجدوده قتيلاً في زراعة «براعم» بطلة القصة، وقد سبق أن قتل زوجتين سابقتين له ليرث مالهما، وجدوده صريعاً داخل زراعة العنب، ومن خلال التحقيقات تعرفنا على شخصيات عدة في القرية، ومالبث التحقيق أن كشف أن الفاعل هو زوجته الثالثة التي اتفقت مع بعض الأشرار الآخرين، على أن تتغدى به قبل أن يتعشى بها إننا بإزاء واقعية خارجية تتسم بالتسجيلية، خرجت الرواية من رحم واقع راسخ اتسم بالعمومية مع أحداث داخلية، وتوازت معها ونشأت عنها صراعات بين

الخير والشر، انتصر الخير الإسلامي من خلال روح جديدة للقص اختلقت عن الأدب السائد، كما اختلقت عن الأدب الإسلامية الأخرى المنتشرة في الساحة، خلت الرواية من الخطابية والتقارير الجاهزة والنهايات الخيالية السعيدة.

### ■ البناء القصصي:

اتسم البناء بالسرعة والنمو وتأجيج المشكل بسبب تداخل الوقائع وسرعتها، استغل الكاتب أحداثاً مشهورة، واستعان بالحادثة البوليسية ليكشف أوجه المفارقة، كما استعان بالعداء التقليدي بين السلطة والعامية، واستغل أساليب الشرطة القاسية - عادة - ضد المتورطين باتهامات تمس النظام، في انتقادات سردية كاشفة ومن خلال الحوار السريع أيضاً وتنوع الشخصيات المتضادة، كما أنه لم يغفل جوانب الخير التي تناثرت هنا وهناك في جسد هذه الإدارة، خلت المعالجة من المبالغة والشذوذ والمغالاة الخيالية، رأيناها - حقاً - واقعية اجتماعية رشيدة، تصادم فيها الخير والشر من وجهة نظر إسلامية، انتصر فيها الخير انتصاراً محدوداً، بعد أن أنهك أفراده وبقي الشر بشخصياته ومبادئه كما كنا مستقراً متربصاً، كانت عدة الخير فيه الصبر والمثابرة والصمود من جانب المعتقلين وذويهم، والحركة الدءوبة من قبل «براعم» ذات المال والنفوذ التي استثمرت كل نقاط الضعف في النظام ولجأت إلى وسائل - قد لا تحمد لها - للدفاع عن المظلومين، برغم سلبية العامة، حتى انفجرت الأزمة وانتصر الخير هذا الانتصار المحدود، الذي ساعد على تحقيقه هذه الظروف الخارجية التي

■ اتسم  
البناء  
القصصي  
بالسرعة  
والنمو..  
وتأجج  
المشكل  
بسبب  
تداخل  
الوقائع  
وسرعتها.

يقول الكاتب: مشى متباطئاً، ممسكاً عصاه بيمنه، والبسمة تعلو وجهه الأسمر الوسيم، وجلبابه الأبيض الناصع يشع طهراً ونقاءً، وكذلك طاقيته المحبوكة على رأسه، كان متجهاً صوب المسجد، لا يرفع عينه عن الأرض إلا بقدر ما تقتضيه الضرورة، يلقي السلام على من يصادفه في الطريق، ومن ينظر إلى وجهه يستشعر الاطمئنان والسكينة، أهل القرية يطلقون عليه اسم «الرجل الصالح» ولكن اسمه في البطاقة الشخصية «محمد أحمد حسب الله» يعرف عنه الحلم، ولكن إذا غضب تحول إلى عاصفة، فقد كان عدواً لدوداً للكذب والنفاق والظلم والتعالم.. إلخ. (٥)

ويقول عن بطلته القصص «براعم»: «جلست قبالة على مقعد خشبي متواضع، كانت تلف رأسها وعنقها بشال أسود رقيق، اختلس نظرة ثم خفض ليستعيد صورتها الفاتنة، الوجه النضر المشرق بالحيوية والشباب، والسمرة الخفيفة، والعينين المححولتين الواسعتين، والرموش الطويلة، والنظرات التي توحى

الخارجي والنفسي معاً - لاستنقاذهم بسعيها ومالها.

إن الصراع بشقيه الخارجي والداخلي ليس جوهرياً - في القصة الإسلامية ولا ينظر إليه على أنه لب الدراما والقصة كما هو في الأدب الغربي (٢)، إن الذي يبلور الحدث ويدفعه للنهائية ليس الصراع وحده، إنما الحركة والتطور والنمو هي لب حركة القصة وليس صراع الطبقات ولا صراع القرية مع السلطة وإحرازها نقطة تقدم، إنما بإزاء واقعية أخرى.

كما يقول محمد قطب، من خلال هذا التفسير الحقيقي المفعم بالتجريب والمواءمة في قصة انتكأت على أحداث حقيقية من واقع ملموس قريب، وصورته هذا التصوير الإنساني، فخلا فيه هذا الانتصار الإنساني من هذه المبالغات الغوغائية التي نراها في واقعات الآخرين، في قصة الأم مثلاً لمكسيم جوركي، أو لقصة الأرض لدى عبدالرحمن الشرقاوي والتي اكتسبت بُعداً (ميلودراميا) في جانبها التمثيلي عندما تبنت رؤية الآخر المادية:

«التصوير الواقعي لكل ما يحدث في حياة البشر من تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية، تصوير لا يغفل مكان الفرد في حياة البشرية ولا يغفل واقع الجماعة، ولا يغفل عن نقط الضعف ونقط القوة في حياة الإنسان، ولكنه يصورها من منبعها الحقيقي من داخل النفس المتفاعلة مع الكون والحياة لا مما يسمى «الواقع المادي» الذي يفرض نفسه على الإنسان والحياة» (٣)

■ الشخصيات: (٤)

سيطرت على مجريات الأمور، فليست هناك، مغالاة ولا حلول سحرية عاطفية، هذا الحل المحدود يرضي التوجه الإسلامي وإن لم يحقق طموحه.

كانت اللمسة الإسلامية في البناء ملحوظة منذ السطور الأولى ومستمرة حتى النهاية، مستعينة بالحوار الكشفى الدال على الشخصية والمحرك للحدث واللمحات الفكاهية المتمثلة في حوارات الجانحين من الحشاشين والأشرار وفي حوارات أم البطل مع الجاموسة الأثيرة لديها، وفي تخطيط النظام في تصرفات مضحكة غير معقولة، مفارقات شتى زرعت هنا وهناك في جسد الرواية، أكسبتها نكهة من نوع خاص، وكسرت هذه الواقعية الجافة في مظهرها، وأعطت لمسة خاصة للشخصيات القصصية، فضلاً عن هذه السلوكيات الهابطة لبعض شخصيات النظام ولبعض أفراد القرية من الجانحين، كانت تصب في المجرى الواقعي باستمرار.

إن الكاتب مثلما استعان بتقنية القص الغربية فإنه قد خالفها أيضاً في التأكيد على سلم القيم الإسلامي وفي مفهوم الصراع الذي اختلف هنا كثيراً، لقد رأينا مزجاً بين الواقع والمثال - دون مغالاة - ورأينا صراعاً محدوداً، لم يكن الصراع الخارجي بين القرية والسلطة، بل كان الواقع غير ذلك فعل سييء خارجي يقابله صمود من النقيض المقابل، ليس صراعاً بين طرفين، هناك نلّم من جانب وصمود وصبر من جانب، وفي جوانب أخرى في القصة نرى صراعاً خارجياً مثل صراع السلطة على اجتذاب اعترافات المعتقلين وصراع «براعم»

بالقوة والثقة بالنفس، والرغبة في  
المجابهة.. إلخ» (٦)

ويتحدث القاص في موضع آخر عنها:  
«لم تتلق من التعليم إلا الإعدادية حين  
مات أبوها، خرجت إلى الحقل تزرع  
وتحصّد، كانت أمها معتلة الصحة،  
وكانت لها أختان صغيرتان، وكانت أول  
من أدخل زراعة العنب في القرية على  
نطاق واسع، فقد نقلت ذلك عن أخوالها  
في قرية مجاورة اسمها «شنراق» حتى  
أصبحت لديها خبرة طويلة في ذلك..  
وبدأت بزراعة أفدنتها الأربعة التي تركها  
أبوها، وبعد أن نجحت أخذت في  
استئجار المزيد من الأفدنة بأثمان مغرية،  
حتى أصبح ما تزرعه يزيد على ثلاثين  
فداناً وكان من الطبيعي أن تترجم ما  
يمكن أن يسمى (نقابة زراع العنب)» (٧)

وتقول هي عن محمد حسب الله:

«قد يكون فقيراً متواضعاً لا يملك إلا  
راتبه الشهري، لكن قلبه كنز، وعقله كنز،  
وأخلاقه جواهر»

هذا الوصف السردي - مثله كثير -  
ثابت ومتناثر في الرواية للشخصيتين  
المحوريتين، وتأثير كل منهما على الآخر  
حتى اقتربنا فيما بعد، لقد كان كل منهما  
مزروعاً في وجدان الآخر، منتظراً أدنى  
إشارة ليعلن عن رغبته، وقد تحققت هذه  
الإشارة - الإشارة - لدى براغم عندما  
أشار عليها بذلك الزواج - حلاً للقلق  
الذي يعترها - الشيخ أبو المجد شاهين -  
الشخصية الثقة المتزمنة دينياً أيضاً،  
الناظرة لشخصية الشيخ محمد في  
الورع والزهد والاعتزال، وبالمقابل فقد  
زرعتها أمه مسعدة في وجدانه من خلال  
إشارتها المتكررة له بالزواج.

لم تكن وسامة الشيخ الخارجية  
الخلقية هي التي جعلته أثيراً لديها حتى  
رفضت جميع من تقدموا من قبل دون  
أدنى مناقشة أو تردد، كأنما كانت تهيبه  
نفسها لهذا اللقاء المبارك ونستعد له، لقد  
كان علمه وموسوعيته الثقافية وورعه  
وتضحيته هي التي جعلته أثيراً لديها،  
لقد اختلف سلم البطولة كثيراً عما  
عهدناه من قبل في الأدبيات الأخرى، ثم  
جاءت فترة المهادنة والنهاية السعيدة  
حافلة بالمسرات والجوائز التي ينالها  
الصابرون والمثابرون بعد عناء، مكافأة  
مؤقتة للسعداء في الحياة الدنيا،  
يرتضيها الدين ويحقق بها مقولته.

إننا نرى شخصيات القصة خليطاً من  
الحسن والسوء، والتوسط والتحول إلى  
الخير، هناك شخصيات ثابتة في الحسن  
أو السوء، وهناك أخرى رمادية تنزع إلى  
الصالح، وانضمت إلى الزمرة  
«جاموسة» مسعدة - أم البطل - التي  
رأينا لها حضوراً متواصلاً وتأثيراً سلبيّاً  
في بعض المواطن ولكنها لم تغادر  
سياقها الحيواني.

من الشخصيات النامية المتحولة  
شخصية العمدة عبد الشافي وهذان،  
عمدة غير تقليدي، يتسم بالشرف  
والإيجابية، تجاوز الدور النمطي للعمدة  
التقليدي الذي شاع في أدبنا المقروء  
والصوتي منذ أن زرعه ونحته محمد  
المولحي في «حديث عيسى بن هشام»  
نموذجاً للبلالة، والثراء المحرم، والإنفاق  
السفيه، والشهوانية المفرطة والخضوع  
للسلطة، والتككيل بالناس، تجاوز  
عبد الشافي هذا الدور الطويل المتكرر، إنه  
هنا شخصية أخرى، شخصية شريفة

الأداء، يحس بالمسئولية والأمانة، لا  
يتخلى عن واجبه تجاه المسئولية،  
ويتجنب الاصطدام مع النظام، يدفع عن  
قريته - ما أمكنه - شر نظام السلطة،  
ويستغل موقعه لحمايتهم، ولما لم يجد  
مفراً خلع منصب «العمدية» من رقبته  
كما يخلع حذاه - على حد قوله.. فهو  
أقرب إلى صورة شيخ القرية، يتصف  
بالتوازن والقدرة على التحمل والقدرة  
على المسئولية، وتشجيع فعل الخير،  
ينحاز إلى الحق، لديه استعداد مبدئي  
للتحول والترقي، لديه نمو درامي، يلي  
شخصية براغم في قابلية التطور  
بسرعة، يتسم أيضاً بالعاطفة والانفعال  
والخطابية.

وتعتبر شخصية الراعي كشكل في  
المقابل، شخصية ثابتة شريفة، حشاش  
قاتل فاسق، اشترك مع زوجة الشقي  
مصطفى السلاطوني في قتله، والقضاء  
عليه قبل أن يقتلها، كما فعل بزوجتين  
سابقتين. كشكل شخصية مرحة غير  
أخلاقية، يحمل روح الشعب وكثيراً من  
أخلاقيات أفراد غير السوية، شخصية  
منغلقة ذات طابع سياسي نقدي، استغله  
القاص كعامل كشفي - في جلسات  
الحشيش - ليبرز كثيراً من القضايا  
السياسية والاجتماعية، ممثلاً لرؤية  
الغوغاء والشعب أحياناً. تكثر لديه  
الفكاهة والتعليقات المرحية التي زادت من  
جرعة الواقعية في الرواية. ومنحتها  
رؤية تحتية لأفكار الآخرين.

ومن الشخصيات الثانوية ذات التأثير  
شخصية «مسعدة» أم محمد حسب  
الله، شخصية مرحة طيبة، ذات قالب  
واحد لم يتغير، تقابل شخصية كشكل

استعان

الكاتب

بتقنية

القص

الغربية

وخالفها..

للتأكيد

على سلم

القيم

الإسلامي.

درامية باهرة، ذات حضور وتأثير غلاب - بالرغم من طيببتها وتواضعها، لها سلطة قيادية على الجميع، من أعلى القيادات التنفيذية والشعبية، وتحظى باحترام الشخصيات الدينية ورضائهم عنها، قريبة من مفهوم شخصية «المعلمة» في الصوتيات الدرامية، إلا أنها أرقى مستوى بكثير وأكثر ورعا، وتمسكا بالتقاليد والأعراف الدينية ربما

حاكى القاص بعض مكوناتها من شخصيات نسائية من التاريخ الإسلامي، متناصا مع شخصية السيدة خديجة - مثلا

- رضي الله عنها ذات الحس التجاري واللمسة

القيادية والإلهام في اختيار الرجل المتميز - وإن كان فقيرا - وإيثارها حسن الخلق وكمال الرجولة والأمانة في الأداء على أي مميزات أخرى، كما صرحت هي «الصحة والأمانة» بل إنها هي التي مهدت له الطريق لاختيارها أيضاً، فلم يكن الشيخ أبو المجد شاهين الذي مهد لهذا الاتصال المتكافئ الا كاشفا الغطاء عن عاطفة نضجت في صمت، وأن أوان

- وبرغم ذلك خلا من الخطابية والتقديرية أو كاد، وفسر كثيراً من الوقائع والرؤى، وأدمج الإسلام وفاعلياته في جزئيات الرواية، وإذا كان العمق الروائي قد أعوزه في بعض الأحيان - كغالب أقاليص الكيلاني - فإنه قد استعاض عن ذلك بالوضوح ومصداقية الحكمة.

رأينا كافة الشخصيات تتسم بالاستقلالية والتنوع والصراحة، تحتفظ بخصوصيتها، وتتواءم مع الحوار والوصف التراكمي لها في كل مرحلة، وقد تلجأ بعض الشخصيات الإسلامية مثل براعم إلى تصرفات قد لا يقرها الشرع ولا تتواءم مع سلم القيم الرفيع لديها أثناء حل مشكلات قريتها، وممارستها لعملها، مثل محاولة استغلال تأثيرها الجمالي على الشخصيات وإبداء شيء من زينتها مثل تأثيرها على عوض العوضي، وعلى بعض الشخصيات التنفيذية لحل قضايا المعتقلين ولجوثها إلى ما يشبه الرشوة لتيسير عملها ومساعدة قريتها.

إنها عيوب تقليدية تناثرت في إبداعات الكيلاني - رحمه الله - قد تفتقر عن التنظير الإسلامي ومايراد من الأدب الإسلامي قليلاً، أخذت عليه أحيانا نماذج من هذه العيوب التي لا نجد لنا حيلة إزائها - والكمال لله وحده - هذا الجمال النسائي الذي يلح في عرضه عرضاً جمالياً حسياً لتزيين النص وتشويقه على مآلوف الأدبيات العامة. (٨)

- ربما دون أن يقصد، وتستغله أحيانا «براعم» الشخصية الأولى في سائر الرواية ذات السلوك الحميد، شخصية

المرحة أيضاً وتضادها أخلاقياً، جعلت من جاموستها صديقة غالية «تحبها كما تحب ابنها محمداً».

- ارتباط الفلاح المصري بالحيوان، وبسببها رفضت الانتقال إلى القاهرة لتصبح ابنها في موقع عمل أحسن من عمله في القرية، بسبب تمسكها بالجاموسة التي لا بد أن تكون معها. هناك أيضاً شخصية اللص عوض العوضي التائب الذي صهرته محنة الاعتقال فصمد أمام تعذيب رجال السلطة، تحول إلى الخير بسبب استعداده النفسي ومساعدة براعم وما اكتشفه من سوء فيمن عذبه، كاد أن يصبح بطلاً.

هناك أيضاً شخصية أبو المجد شاهين الصوفي المعتزل الذي جرفته الأحداث، ولقى نصيبه من التعذيب والإهانة فاعتزل صومعته وشارك في الأحداث بفاعلية وخاصة الشدائد والغمرات، حتى أصبح من رموز القرية الإيجابية، ارتقى بمفهوم الصوفي التقليدي الذي يجتنب الناس، إلى المشاركة الحقة في هموم المجتمع، يقول كلمة الحق ولا يبخل بالنصيحة الصادقة، تجاوز الدور السلبي القديم.

إن لمحة التجريب والانتزاع من الواقع ملحوظة في اختيار الشخصيات وأسمائهم ودورهم وهمومهم، واضحة في هذا النص الذي اكتسب أهميته من صدقه وتوظيفه لكثير من الأحداث الخارجية ذات الشأن ودمجها في ثنايا القص، وحبكته لارتباطها العضوي بقضايا الفرد العادي - مثل قضية البنك الدولي والقروض وحرب الخليج وغيرها

ظهورها والاعتراف بها، وجاءت إشارته لها بالزواج منه تحديداً، تزكية للمسار الذي اختارته، واعترافاً ببعد نظرها وتأييداً لها في البوح بما يشغلها ويؤرقها، لذلك رأيناها عجزت عن النطق - أصابتها الدهشة والفرحة - عندما تلامس الحوار مع مكوناتها العاطفية.

لقد تحقق من خلال هذا الارتباط السعيد بعد انتصار الضعفاء الرؤية الإسلامية التي تتسم بالعدالة وتغليب مفهوم العدل الذي يجب أن يسود، والسعادة لمن يستحقها، فقد ظفر بذات الدين التي اجتمع لها الخلق الحسن والعقل الراجح والوسامة والثراء كما ظفرت هي أيضاً بمن اختاره قلبها وعقلها، زكاه لديها حسن أخلاقه وتدينه، وقد نفرت ورفضت كل من تقدم إليها سواء أكانوا من أثرياء الريف أو التجار الذين نهجوا نهجها، في سلوك طرق خاصة، والاشتغال في أعمال غير مألوفة، تؤدي إلى الثراء السريع واقتناص فرص غير معتادة ومثل رئيس مجلس القرية أو ضابط الشرطة أو عضو مجلس الشعب وغيرهم ولكن لوحظ على معظمهم أنه كانت تحوط بهم الشبهات، ولم يكونوا أكفاء، فهي - عند التدقيق - لم ترفضهم اعتباطاً أو ترفعا، أو تفضيلها البطل الوسيم - على مألوف الرومانسيات العاطفية - كلا، فمحمد حسب الله بطل بمواصفات جديدة، لقد اختارته وآثرته بعاطفتها لسجايها الإسلامية وخاصة جهاده وشجاعته وصموده «قلبه كنز - وعقله كنز - وأخلاقه جواهر»... كما قالت هي، فاستحق هذه المكافأة.

لقد امتأل النص بكثير من الحركة الخارجية مثل الحروب والمظاهرات والاعتقالات والاستجابات والمحاكمات، وكثير من الرؤى السياسية المتقلبة، وجاء البعد العاطفي المقابل للتسجيلي الواقعي موازنا وختاما حسنا ومكافأة حسنة بهذه النهاية السعيدة، تناسبت مع السياق ولم تتنافر مع المفهوم الإسلامي بهذا الاختيار.

وهنا تنتقل التقنية الروائية إلى مرحلة جديدة ينمو فيها صراع آخر بين براعم وأقربائها - هذه المرة - يبدو فيه البطل بعيداً ومعزولاً، إننا في مرحلة انشطار مسموح به أحيانا في مجال الروايات، أي أنه ضرورة تستطيع إفرزات الرواية أن تهضمها، إلا أننا ننتقل إلى مجال جديد تماماً.. يخالف ما ألفناه، ولا نرتاح ونحن نتوغل فيه.

إن هذه الأزواج الجديدة لحدث الرئيسي تستعير بعض مكوناتها من السير الشعبية، وكان بوسع القاص.. من خلال خبرته الطويلة أن يكفينا عناء هذه الالتفاتة الكبيرة لو أدمج المشكلة العاطفية العائلية لبراعم في ثنايا القص منذ البداية، بالرغم من أنه كان يشير إليها بين الحين والحين، وفضل أن يتركها إلى أن يجيء وقتها، ثم فوجئنا به يدخل انعطافية كبيرة لم تكن موضوعة على خريطة القص، إذ انبعث فجأة شخصيات وقربايات وارتباطات وعادات غير مألوفة، وبدا ما يشبه الصراع بين براعم وأخوالها الذين عارضوا اختيارها الزواج من محمد حسب الله - خشية على ثروتها طبعاً - إننا لم نر بوادر هذا النزاع من قبل، وقد

أحسن القاص إذ تجاوز هذه المعركة بسرعة، فقد انتهت بسلام ودون محاجة، عالجتها براعم بكياسة وتلف، راعت الأصول الإسلامية والاجتماعية ولم تقطع الخيوط مع ذويها، حتى انتزعت موافقتهم وتغلبت على شراستهم، وساد مفهوم السلام الأسري أفق النص دون غالب أو مغلوب، عندما خفصت لهم جناح الذل حتى نالت موافقتهم فلم تتخل عن طموحاتها ولم تقطع الخيوط مع ذويها.

### ■ ملاحظات أخيرة:

لقد رأينا أن الرواية قد حققت مستوى فنياً لا بأس به مستخدمة وسائل القص المعتادة لم تغفل الحكمة ولا مستوى معيناً من الصدق الفني، خلت من الخطابية وإقحام «الأيديولوجية»، وقد تحقق فيها أيضاً كثير من غايات الفن الإسلامي ذكرها المنظرون لمقاصد الأدب الإسلامي مثل: الإسهام في بناء المجتمع، وملء النفس بالأمل والإسهام في تكوين الفرد الفعال الملتزم، وغرس الولاء الصادق للإسلام في نفوس أفرادها وتأكيد العبودية المطلقة لله، وتنمية روح المسؤولية، وتأصيل قيمة الجهر بالحق، والاهتمام بموضوع الحلال والحرام، وتفويض الأمر لله، وعدم التهاون أو الكسل وتنمية الحس الجمالي والذوق الفردي، كما تطرق إلى ذلك المعاصرون من الكتاب الإسلاميين (٩) إنه نص إسلامي تطبيقي اختلفت مقاصده عن غايات كثير من الأدبيات المعاصرة وإن تماثلت في اصطناع الوسائل الفنية، لقد عادت الروح الإسلامية المهجورة كثيراً في الأدبيات الأخرى أو المبتوثة بافتعال وخطابه، عادت هنا بدون

■ اتسمت  
شخصيات  
«ملكة العنب»  
بالاستقلالية  
والتنوع  
والصرامة مع  
احتفاظها  
بالخصوصية.

إقحام أو خطابية.

■ الهوامش:

- ١ - الرواية ص ١١٣
- ٢ - د. محمد أحمد حدنون:  
نحو نظرية للأدب الإسلامي  
(مفهوم الصراع بين الأدبين  
الغربي والعربي ص ١٣٥ -  
١٥٣) مطبوعات المنهل
- ٣ - محمد قطب: منهج الفن  
الإسلامي ص ٦٢
- ٤ - عناصر القصة طبقاً  
لرؤية نجيب الكيلاني في  
كتابه: حول القصة الإسلامية  
ص ١٨ - ٤٥، أدب الطفل في  
ضوء الإسلام ص ٥١ - ٨٤
- ٥ - الرواية ص ٥
- ٦ - الرواية ص ٨
- ٧ - الرواية ص ١٦٣
- ٨ - أشار الأستاذ  
عبدالله صالح  
العريني في كتابه  
«الاتجاه  
الإسلامي في  
أعمال نجيب  
الكيلاني ص  
١٤٦، إلى بعض هذه  
السبلات.
- ٩ - عبدالرحمن صالح  
العشماوي: الاتجاه الإسلامي في آثار باكثير
- ١٠ - د. عبدالرحمن رافت الباشا: نحو مذهب  
إسلامي في الأدب والنقد
- ١١ - منهج الفن الإسلامي: سبق ص ٦
- ١٢ - د. حلمي محمد القاعود: الواقعية  
الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني ص ١٥.

الاجتماعي والخلقي، والهبوط الإداري  
والسياسي الجانح عن الصواب الإسلامي،  
الرافض للروح الإسلامية، وبسبب هذا  
الجنوح تردت القوانين والأنظمة وتردى  
الأمن الإنساني والاقتصادي، كما عبر  
بصدق عن هذه الغيبوبة الدائمة للقائمين  
بالأمر وصدق الحس الشعبي الرشيد  
للقرية.. رمز الوطن الكبير.

ومن مشاهد التجريب هذه الوقائع  
التراكمية للتعذيب التي ذاق القاص ثمراتها  
- حقاً - في مراحل مبكرة من حياته، كما  
عرض مظاهر للرشوة وفساد بعض رجال  
الإدارة وبعض أفراد الشعب أيضاً، فلم  
يكن الفساد أو الصلاح مقصوراً على طبقة  
أو طائفة، وخالف بذلك الحتميات العجيبة  
ونظرية صراع الطبقات في فلسفة الآخر  
التي عشت وعمرت واستكانت مستقرة  
في الأدب الآخر، بالرغم من أن الواقعية  
الإسلامية ذات رؤية نقدية أيضاً (١٢).

إن تجريب القاص بثقافة مهنته كطبيب  
وتجربة السجن والتحقيق معه والواقع  
السياسي الخائب والاقتصاد المتردي  
وصداه على الشعب والطبقات الدنيا ورجل  
الشارع، كل ذا قد بدا - دون إقحام أو  
تسييس - من خلال لوحات متتابعة ذات  
مغزى وإشارته الواعية للنظام العالمي  
الجديد، وهيمنته وتأثيره على الفرد  
العادي، فضلاً عن الفساد المستشري  
وأاسبابه مما أنبأ عن دراية للواقعية  
الإسلامية الرشيدة التي امتد ظلها في هذا  
النص وامتد معها النص الديني والروح  
الإسلامية التي امتد ظلها على الأسوياء،  
فتحققت لهم السعادة والنجاح، وحرمت  
من هذه السعادة الفئات الجانحة.

إنه نص يرمز بالحياة الجديدة دون

إقحام أو تراكمية، تتوافق تماماً مع الواقع  
الاجتماعي، تعنى بتطور المجتمع، ونضج  
أفراده من خلال تأصيل القيم، إنها واقعية  
اجتماعية.. اختلفت كثيراً عن الواقعية  
المذهبية - ممزوجة بلحمة عاطفية معتدلة،  
تتسم بوضوح الرؤية الإسلامية المعاصرة،  
إن هذه المناقشات الدينية لم تكن مقحمة أو  
مفروضة على النص ولكنها واقع اجتماعي  
يتجاهلها الأدب عادة أو يتناولها تناولاً  
مفتعلاً خطابياً، في المناسبات الدينية كما  
اختلف دور المرأة والعلاقة بها عما يبثه  
الأدب عادة فيما نظره الكيلاني من قبل،  
يقول:

القصص التي تبالغ في تعظيم المرأة  
وجعل الفوز بها غاية الغايات.. ما أكثر  
القصص التي تزخر بالفرسان والأبطال  
وبالملوك والأمراء يتبارزون ويتحاربون  
من أجل أن يفوز أحدهم بقلب امرأة،  
ويرتكب في سبيل ذلك من الحماقات  
والمظالم، ويدوس القيم والمبادئ، مثل هذا  
اللهاث المحموم المريض الذي ينظر إلى  
المرأة كهدف وغنيمة ولذة كبرى.. (١٠)

لقد خلا أدب الكيلاني من مثل هذا  
اللهاث، سلك مسلكاً وسطاراعياً فيه اقتتران  
الجمال بالحق - إلى حد ما - كما يقول  
محمد قطب: الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل  
بين الحق والجمال، فالجمال حقيقة هذا  
الكون والحق هو ذروة الجمال ومن هنا  
يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل  
حقائق الوجود. (١١)

لقد امتلأ النص بكثير من الممارسات  
الحقيقية للواقع المعاش، وأنبات عن التزام  
الكاتب وانغماسه في التجربة التي انطلق  
منها بوعي وبصيرة وعن تحكيمه للعدل  
الإسلامي وتعليقه الصائب للترددي





# الاصدار

■ من «باب السلام» عبّر إلى جوّاري، تعلّقت به عيناى وأنا أتلو دعاء دخول المسجد، شيخ مسن بملايس الإحرام، صدره ووجهه منحنيان صوب أرضية المسجد الحرام، كل عروق جسمه النحيل ظاهرة، وقطّع لحمية من أعلى ذراعية تهتز مثرهلة، كتل بشرية مكسوة باللون الأبيض تتحرك في بطء حيناً وفي سرعة حيناً آخر، تحدث السرعة إذا تحركت الصفوف الأولى فيجدها التابعون لهم فرصة للإسراع.. فالكعبة قد بدت أمامهم، كل منهم يختلس النظر إليها من تحت كتف الآخر أو من فوقه! ها هي ذي تبدو بعد خطوات من مدخل باب السلام.. تبدو باسقة مهيبة، تزدان بحجابها الأسود.. الكل يرنو إليها وكأنهم يخشون أن يعوقهم عائق عن الوصول إليها، وأنظر فأرى غيري ينظر إلى الطائفين في فرحة وبهجة، وسؤال يتقاطر في صدورنا، وتكاد تتناقله عيوننا: هل سنصل إلى هذا الموضع؟ هل سنطوف؟ أفسنصير قريبين من الحسناء الباسقة وهي تحتضن الحجر المبارك.. تضمه بكلا جناحيها، فالخلق كثير وكلهم يريدوها.

خواطر كثيرة تملأ الرأس ثم تندرج إلى القلب، إنها حَجَّتِي الأولى، وهتافٌ عذبٌ في صدري يتمايل، أحاول إيقافه فأعجز، أكاد أسمع صوت خواطري: هذا أول بيت وضع للناس على الأرض ليعبدوا فيه رب السماء والأرض «إن أول بيت وُضِعَ للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين»

بالرغم من شدة احتكاك الأكتاف والأيدي نظراً لكثرة الحجاج وتزاحمهم فنحن جميعاً باسمون، هذه البسمة في الأصل ضحكة لكن كل منا يكتمها قليلاً فتخرج ابتسامة صغيرة على فم شخص، وواسعة على فم شخص آخر.

أنظر إلى الشيخ وأنا أحاول أن أقرب منه، فلعله يحتاج إلى شيء، ابتسامة حلوة متهللة تعلو وجهه الأبيض، وتطفو فوق لحيته المشيبة، أراها وهو يحاول أن يرفع وجهه المحني ليرى الكعبة.

لمست كتفه بيدي مرحباً: أهذه حجتك الأولى يا عم؟ تهدج صوته: الخامسة بحمد الله، من ذاق عرف، لذة لا توصف لا حرماً الله، من عرفها مرة يطلبها كثيراً.. تقبل الله منا جميعاً لا حرماً.. رضي عنا وغفر لنا.

قلت: آمين، ورحمت أنظر حولي، رأيت شعوباً مختلفة.. من بلاد قريبة وأخرى بعيدة، تُعجز اللغة، لكن العيون والابتسامات وعبارات: الله أكبر... باسم الله... لا إله إلا الله، تربط بين الجميع، جميع الوجوه مستبشرة.. ضاحكة، لا يخيفها الزحام الكثيف، لا أحد مقطب أو عابس أو صامت، إن سكت لسان شخص تحدثت عيونه وأسارير وجهه، هندي يخاطبني بابتسامته.. وتركتاني يبتسم لي، يبتسمان للآلوف، لكنني أفهم ابتسامتهما وكأنها موجهة لي وحدي، خاصة بي، ولم لا؟ ما أدراني.. هل يفهمها أحد مثل فهمي؟ هل يشعر بها مثل شعوري، أقرأها على أنها: «مرحباً... يتقبل الله منا ومنك» أقرأها بوضوح فتظهر لي كلماتها: ها نحن أولاء في البيت الحرام.. ها هي ذي الكعبة، انظر إنها هناك، قريبة منا.. قرييون منها، ولعلنا نستطيع تقبيل الحجر المبارك، الزحام كثيف، لكن لننتقم ونحاول، غيرنا وصل إليه، ونحن مثل غيرنا، تجيبهم ابتسامتي موافقة مشجعة، وتتعانق البسمات.

يد معروفة تحط على ذراعي.. يد الشيخ، يستحسني برأسه المشتعل شيباً على الإسراع، نظرت إليه فرأيت وجهها قمرياً، لم تقهر التجاعيد وضاءته، هل سوف يسير كل هذه المسافة إلى الكعبة؟

هل سيطوف بين هذه الحشود التي تطوف؟ لعل أحداً من أقاربه أو أبنائه قد مضى ليستأجر له الحامل الخشبي الذي يطوف بها محمولين كبار السن، لكن الآن هل سيمضي أو سيجلس قليلاً؟ أعدت عيني إليه فرأيت يده بساقيه النحيلتين على الأرض، ويداه تكادان تقتربان من موضع قدميه، وعلى شفتيه ابتهالات وذكر ودعاء.

ولأننا دخلنا من باب السلام فقد رأينا أول ما رأينا الساعين بين الصفا والمروة، يمشون ويهرولون ملبين ومهللين، رأيناهم أسفل منا ونحن على جسر حديدي، صغير يأخذنا من الباب إلى ما بعد المسعى، تهليلهم يصدح في أرجاء المكان كله، قلت في نفسي: سوف تسعى بعد الانتهاء من الطواف، نظرت إلى الشيخ وأعدت النظر إلى كبر المسافة بين الصفا والمروة، خاطبته: توكل على ذراعي يا حاج.

أجاب: الله يعيننا جميعاً ويتقبلنا برحمته. كنت أقول لنفسي: كل هذا الطريق.. أعني طريق المسعى.. مضت عليه السيدة هاجر سعيًا وهرولة! انطلق إبراهيم عليه السلام نحو

الجنوب، بأمر الله يتحرك أنبيأؤه ورسله.. وبوحي منه سبحانه ينطقون، تتبعه هاجر وبين ذراعيها وليدها (إسماعيل) وانتهى بهم المسير إلى مكة، وهي وقتئذ مقفرة خلاء، لا يلم بها سوى نفر من الرعاة الرُحْل، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها، وينتقلون من حين إلى حين التماساً لماء أو انتجاعاً لمرعى.

البيت عتيق معن في القدم.. لا أحد يعرف على وجه القطع متى كانت بداية إنشائه على الأرض، المهم أن أطلالاً منه بقيت، وعند ربوة حمراء قريبة من هذه الأطلال ودع إبراهيم عليه السلام هاجر وابنه الرضيع تنفيذاً لأمر ربه.

سألته في لهفة: الله أمرك بهذا؟ أجاب دون أن يلتفت: نعم، فقالت في رضا وتسليم: إذن فالله لا يضيعنا.

ومضى نبي الله في طريق العودة يتوسل إلى ربه ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرو﴾.

كان الأب النبي الحليم، قد ترك لزوجته وابنه جراب تمر وسقاء فيه ماء، سرعان ما نفذ الزاد القليل، أشفت الأم على رضيعها.. كلما مرت لحظة ازداد خفقان قلبها وامتلاً خوفاً.. ألهمها الله أن تتحرك نحو جبل الصفا لتسعى وتدعو بينه وبين جبل المروة، هرولت وسعت، وسألت الله في إلحاح وتضرع أن يرزقها وطفلها، وأن يؤنس وحدتها، ويبدد غربتها.

سعت سبعة أشواط ثم عادت إلى وحيدها راجية منتظرة فرج الله.. الرضيع يئن وقدماها لا تقويان على حملها وعيناها حائرتان بين النظر إليه، وإبعاد وجهها عنه.. ثم نظرت فرأت طائراً يحوم على المكان ثم يحط على بقعة منه، لبث ينقر فيها بمنقاره حتى انبثق ماء.. وأقبلت ترتوي وتسقي طفلها، زاد الماء وقاض، فراحت تلمسه إلى أسفل.. إلى ينبوعه الثري هاتفة: «رُمِّي.. رُمِّي»

عدت أنظر إلى الكعبة.. المكان هو هو.. لعل هاجر ووحيدها كانا هنا أو هنا، أمام هذا الركن أو ذاك أن يصدر أمر الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن يرفعا القواعد. كان البيت من قبل وإنما رفعا قواعد..

سعت هاجر بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وأمرونا إلى الأبد بأن نفعل فعلها في كل عمرة أو حج وأن نتلو ﴿إن الصفا

والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما.. ﴿

الكعبة مائلة أمامنا، ندفع نحوها عيوننا وتدفع قلوبنا ونحرك أرجلنا إليها وسط أمواج البشر، أدركت رأسي ناحية الشيخ فرأيت أثر إعياء على وجهه، قلت له: يا حاج، هل تحب أن نجلس قليلاً قبل الطواف؟

أجابني باسم يحوط الشيب القمري ابتسامته: ليس الآن، بعد الطواف سوف نصلي ركعتين في حجر إسماعيل أو أمام مقام إبراهيم عليهما السلام ثم نشرب من ماء زمزم.. تذكر يا بني أنه شفاء، وعندئذ لا بأس من أن نجلس قليلاً.

همست لنفسي، وخواطري لا تتركني: كانت هاجر تدعو الله في حماسة ورجاء.. في ثقة ويقين، فتفجر الماء الحلو، وتدفع الناس من كل مكان، وعاماً بعد عام بلا توقف، حتى أتينا نحن الآن.. وهو موكب مستمر، كل هؤلاء الحجيج من كل الدنيا أتوا منفذين أمر الله: «ولله على الناس حج البيت» ومنذ زمن بعيد نفذ إبراهيم عليه السلام أوامر ربه مرات عدة، عندما أمره ربه بتبليغ دعوة الحق وهجر عبادة الأصنام ولقي في سبيل دعوته عنت القائه في النار، فأمرها ربه بأن تكون عليه برداً وسلاماً، عندما أمره بأن يترك زوجته وابنه في مكان لا زرع فيه ولا ماء، عندما أمره بأن يذبح ابنه الحبيب الذي رزقه على الكبر، عندما أمره ربه بأن يرفع قواعد البيت ويظهره للطائفين والعاكفين والركع السجود مع ابنه إسماعيل.

أخرجني من تأملي صوت الشيخ ضعيفاً متهدجاً رقيقاً حاراً: الله أكبر، الله أكبر، التفت فإذا نحن على مقربة منها (الكعبة)، تشبثت عيناها بها، جميلة جليلة، أعلاها مغدق وأسفلها مثمر.. أصوات تسابيح تنساب من قممها إلى قلبي، تجمع الطائفين حولها يشبه تجمع الأولاد والبنات حول أمهم.

التفت إلى الشيخ، وتأكدت أنه سيطوف على قدميه، ونظرت إلى الكتل والجموع.. رقة الوجوه وأطياف الابتسامات تطمئنني أن أحداً لن يوقعه أرضاً، لكن شيخوخته ومشيه برجليه وظهره محني تماماً يقلقني، رفع رأسه قليلاً بقدر استطاعته: فلنبداً من الخط... الخط الممتد أمام الحجر.

رجعنا إلى الخط المرسوم على الأرض بلونه المميز المختلف عن كل الرخام الأبيض، والممتد بدءاً من الحجر المبارك.. رأيت يرفعه يديه مشيراً إلى الحجر: باسم الله الله أكبر، لحم ذراعيه يزداد اهتزازاً، أنفاسه مع كل طواف تزداد اضطراباً، لكن وجهه يزداد ضياءً!

كنت حريصاً على أن أكون قريباً منه.. كلما فرق بيننا الحجيج كنت أرسل عيني إليه ثم أقترب منه، أدرك حرصه فرفع رأسه

وأرسل من طاقم أسنانه ابتسامة صنع لها وجهه المشرق إطاراً جذاباً.

قريب نهاية الشوط الأول قال لي: فلنقبل الحجر.

كان بيننا وبينه مئات متلاحمة مترصة من الطائفين. قلت: هذا صعب للغاية. لم يجبني وواصل الخطو، ثم قال: ادع الله بما في قلبك، تذكر أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سمعته يرفع صوته بين الركن اليماني والحجر المبارك: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ رددت دعاءه وأنا أنظر إليه وهو ينحاز إلى ناحية الحجر. فطنت إلى بغيته وهدفه. قلت له في إلحاح: صعب للغاية، ألا ترى الجموع المتدافعة نحوه. لم يجبني.

مضينا معاً، وهو يكاد يسبقني، وتوقف أمام «الملتمزم» يدعو ففاضت عبراته على لحيته البيضاء قطرات كالندى فوق الغل عند إشراقة الصباح.

واستمر الأمر على هذه الصورة.. ينحاز إلى الحجر ثم يتراجع ويكمل الشوط الذي هو فيه، في الشوط السادس سمعته يهتف: توكل على الله، ثم رأيت رجلاً غير الذي رأيته.. رأيت جسمه المحني يتجمع ويشد، لا أستطيع أن أصف في كلمات ما حدث، أذكر فحسب أنني رأيت أجساماً كبيرة وعضلات ضخمة لدى بعض الشعوب خاصة، والمسؤولون عن النظام يحاولون توسعة مكان لكبار السن لكننا جميعاً نشكل في تلاحم متنافس قطعة حديدية صلبة ضخمة، والأجسام تتدافع بلا إرادة.. يريد شخص أن يتجه إلى الأمام لكنك تراه مندفعاً إلى الخلف فتتحاشى سقوطه عليك.. فتتراجع، لكن لم يحدث أن وقع شخص على الأرض.

ازداد اشفاقي وخوفي على الشيخ، لكنه وكزني بأصبعه هاتفاً: توكل على الله.

وفي لحظة أو لحظتين غداً بينه وبين الحجر ذراع واحد، لكن كتلة بشرية تشكل جداراً صلباً تحتل هذه المسافة وجدت في نفسي حياءً أن أضعف، فشذت خطاي نحو الشيخ إذ كان قد تجاوزني، غدوت إلى جواره... كلما اقترب من الحجر ازداد هتافه: (باسم الله، الله أكبر) قوة، اخترق الجدار البشري ثم توقف، فحسبته سوف يرجع، لكنني رأيته يتقدم، بظهره المحني وبقطع اللحم المتراقصة فوق عظامه شب بقدميه ومد ذراعيه ناحية جدار الكعبة فوق موضع الحجر المبارك... ورأيت يميل رأسه إليه ويقبله.